تأثير العلم

في الفلسفة الحديثة والتفكير الحديث

لطه الباقر

العلم والصورة الكونية

مما يميز الفلسفة الحديثة عن سواها من الفلسفات السابقة مجابهتها طائفة كبيرة من الحقائق العلمية الجديدة عن الانسان وعن العالم . ومهما يختلف الناس في موقفهم تجاه الفلسفة والعلم ، بين تفضيل الواحد على الآخر ، او التعويل على الواحد دون الآخر ، فان محاولة التوفيق بين الاثنين تقتضي من كل مفكر يأمل لطريقته الفلسفية انتشاراً وتابعين ؛ أن يعترف بصورة العالم كما رسمها العلم الحديث ، وان يجعل المعرفة العلمية اساساً وخطة كائناً هدفهُ ما كان . وسر هذا السلطان ، سلطان العلم على الفلسفة ، هو ما احرزه من ثقة الناس باساليبه ونتائجه وما احدثهُ في حياة البشر من انقلاب . فالطريقة العلمية اضحت المقياس الحصري لكل بحث وتفكير ، والانقلاب الصناعي الذي انتجه العلم ، والحقائق الغريبة التي جمعها عن الكون وعن الانسان ، كل ذلك حدا بالفلسفة الى الخضوع لارادة العلم سواء كان ذلك في تعيين موضوعات بحثها ام في قسرها على قبول ما تجمع لديه من حقائق عن الكون وعن الحياة

وسنرى في ما يلي أن ابرز واثبت طابع احدثهُ العلم في الفلسفة هو ما نتج عن الصورة التي رسمها العلم للعالم والحياة ، والتي يمكن اجمالها بعبارة « العالم الميكانيكي المتطور » . ولتفصيل اجزاء هذه الصورة وتحليلها ، نقتطف نبذاً من الحقائق العلمية عن العالم وعن الانسان

قال اللورد بلفور : « ليس الانسان ، كما ينص على ذلك العلم الطبيعي ، العلة الغائية لوجود هذا العالم . وليس هو المخلوق الهابط من السماء والوارث لجميع العصور . وما قصة وجوده إلاّ حادث عارض ، وما تأريخه الا فترة قصيرة في حياة احقر سيار . ومع جهل العلم بتلك الاسباب الاولى التي انتجت هذا المخلوق العضوي الذي نسميه انساناً ؛ بتحويل مركبات عضوية مائتة ، فاننا نعرف أنهُ منذ البدء تضافر الجوع والتناحر وانسفك على الفناء جنس يعرف أنهُ حقير وأنهُ لا شأن له في هذا الكون. لنستعرض الماضي فماذا نجد ؟ نجد ذلك الذي ندعوه تأريخاً ليس الاّ دماء ودموعاً ، اخطاء وفظائع وثورات . والمستقبل ! ماذا في المستقبل ؟ نعرف انهُ بعد فترة ، طويلة اذا قوبلت بحياة الفرد ، وقصيرة اذا قوبلت بما عرفناه عن حياة العالم، ستنحلُّ قوانا وسيزول مجد الشمس، والأرض

الخامدة لن تتساءل بوجود الانسان الذي ارعج عزلتها برهة ، اذ ستؤدي به الى العدم . وسيعقب هذه الطقطقة التي احدثها الانسان في احدى زوايا العالم ، سكون وهدوء ، فلا مادة ولا خلود ولا أعمال ولا معرفة ، وحتى الموت تنسه والحب الذي هو أقوى منه ستكونان كأنها لم تكن مطلقاً »

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

اما العالم الفلكي فنجده يقول : « ليس عالمنا الا وحدة من مجموعة عوالم كثيرة تقف امامها حيارى اذ لا تمكننا وسائلنا من البحث في تلك الابعاد حيث يسود الظلام المطبق . واذا كان توغلنا في تلك العوالم لا يجدينا معرفة عنها فانه مكننا من ان نعرف اننا كلما ابتعدنا عن عالمنا ازدادت ضآلة شأن الانسان . وعرفنا ثلاثة اشياء ايضاً : (١) اطراد الناموس الطبيعي في تلك الابعاد اللامتناهية (٢) انتفاء البينة على وجود غاية يمكن العثور عليها في أي جانب من جوانب الكون الفسيح (٣) ان معرفتنا عن الكون وبحثنا في ارجائه لا ترينا أضأل أثر لوجود ذات روحية »

واذا سألنا البيولوجي أو البسيكولوجي اجابنا : الانسان حي « كيماوي طبيعي » — Physico-Chemical — وما أمله وطموحه وحبه وخوفه وأثرته وايثاره ومعرفته الا نتيجة تفاعلات كيماوية وقوانين تسيطر عليها فتكوّن الوان سلوكه وتصرفه » . والفيزيائي ، وهو الذي كشف مجاهيل عالم الذرات المكوّن منها الانسان وعالمه ، يملي علينا الحقائق الآتية : « معرفة التركيب الذري كشفت لنا عن ظواهر كان حتى نفس وجودها غير منتظر قبلاً . وبهذه المعرفة الجديدة نجد صورة « المادية » — Materialism — واضحة غير مشكوك فيها . ونحن في كل بحوثنا ومعرفتنا لم نجد أي غاية للوجود . وكل ما نجده في هذا الوجود هو الاتساق والانتظام الناشئين من اطراد الناموس الطبيعي واتقانه حتى لو قلنا بأن الكون سائر الى الفناء النهائي فذلك لا يعني وجود أية غاية ، كما لا يستلزم وقوف الساعة وعطلها قصداً سابقاً . وأخيراً لا نجد في هذا الميدان الجديد من الكشوف العلمية مكاناً لأي فاعل روحاني . نعرف مما تتكون المادة ونعرف انها طاقة ولكن الطاقة مادية من عالم المادة وليست من عالم الروح ولا يمكن ان تحلل الى الروح . فأين عالم الروح إذن ؟ »

يظهر من ذلك أن العلم في مكتشفاته ووسائله ما كشف عن أي أثر لصديق للانسان سوى الظواهر الطبيعية ، ولم يوفق خلال تنقله بين العوالم إلى أن يعثر على أية قوة إلهية تعنى بالانسان ، او على اي مبدأ ينصر للانسان نجاحاً في كفاحه وغاية من وجوده . فعين العلم لا ترى الانسان الا وحيداً في عالم نفس وجوده فيه عارض وصدفة . واذا كان ما يراه العلم صحيحاً ، فاذا حدا بالانسان ، من قديم الزمان حتى الآن ، إلى ان يشعر بأن هناك قوة سماوية تعنى به وأنها خلقت كل شيء من اجله ؟ الانتروبولوجي يجيبنا عن هذا السؤال بقوله : « نحن حيوانات اجتماعية من

نوع تلك التي تعيش قطعاناً ، وكذلك كان اجدادنا منذ عصور كثيرة . وبغريزتنا الاجتماعية هذه ننظر الى العالم فندرك فيه الحنو والاخوة والصداقة . هذا ما يخبرنا به دارسو الحيوانات الاجتماعية اثناء تجاربهم بملاحظتهم ما يطرأ على عادات الحيوان الاجتماعي وعلاقة تلك الطوارئ بوحدة ذلك الحيوان وحنينه الى قطيعه المفقود . وكذلك تكونت عند الحيوانات الاجتماعية غريزة البحث عن اصدقاء غير موجودين . فمن المحتمل إذن ، او قد يكون اكثر من المحتمل ، أن نشوء فكرة ذلك الصديق عند الانسان يرجع الى تلك الغريزة التي تتصف بها الحيوانات المجتمعة ؟ أي أن أصل الفكرة تشوق الانسان الاجتماعي الى البحث عن القطيع ، او دليل القطيع ، فتعدى في بحثه هذا حدود الارض الى ما وراء النجوم ؟

ولكن العلم وان يكن لا يجرؤ على نفي ذلك الصديق تماماً فانه زعزع امل الانسان في العثور عليه وجعله وحيداً في هذا العالم الغريب . واذا لم يكن العلم قد نفى الصديق عن الانسان، فما سبب هذا اليأس والتشاؤم ، او كيف استطاع العلم أن يزعزع أمل الانسان وايمانه ؟

استطاع العلم أن يزعزع ايمان الانسان وأمله لا لأنه قال له او فرض عليه ان ينبذ الايمان ؟ فالعلم لا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً إلاّ بعد التجربة والتمحيص. انه لم يقل ذلك مطلقاً ، ولكن هنالك آثار ثانوية مصاحبة للعلم وقد كان من اثرها زعزعة أمل الانسان وايمانه . وهذه الآثار هي : —

١ . تغلغل الروح العلمية او العقلية العلمية والثقة التي حازت عليها بين الناس جعلهم يتخذونها المقياس المعول عليه في شتى القضايا حتى شمل تطبيقها البحث في كل فن . وهذه العقلية العلمية ، وما تتصف به من شك وتجربة وتمحيص ، جعلت الانسان يقف بها تجاه الايمان والمعتقد كانهما قضية قابلة للتجربة والامتحان

٢ . وقد ينبعث ذلك الشك في الايمان من مصادر غير الروح العلمية ، كما حدث وكما يحدث لافراد ليسوا علماء وليسوا متصفين بما نسميه العقلية العلمية . فتعرض الايمان لذلك دوماً ، وتعلقنا بالايمان وبالأمل اللذين يحدوانا الى السير في حياتنا قانعين بل ومغتبطين ، كل ذلك جعلنا نبحث دوماً عمّا يقوي ذلك الايمان وذلك الامل في نفوسنا . ولطالما لجأنا الى وسائل شتى نعزز بها ايماننا ، فاتخذنا المنطق والفلسفة وصناعة الكلام ، بل والعلم ، سبيلاً الى الغاية نفسها . ولما ترقت معرفة الانسان في هذا القرن ، ووصلت الى ما وصلت اليه من الشموخ والتعالي والثقة ، لجأنا الى العلم نسأله ونريد منه أن يطمأننا في املنا وفي أمانينا وجملنا الحكم في شكنا . ولكن بماذا أجاب ؟ لم يجب إلاّ باللاادرية القاسية والعجز ، وهو الذي نعتقد فيه القوي القادر ، فزعزع ذلك أملنا وتسرّب الشك الى ايماننا

٣ . ولو اقتصر الأمر على لا ادرية العلم تلك لهان الأمر ولسهل على كثير من النفوس أن تظل مثيمة بسعادة الايمان والأمل، ولكن الأمر تعدى ذلك الى كشف حقائق علمية عن الحياة والكون

مثل « المادية العلمية » التي صدم بها العلم عالم الروح ، ومثل قابلية فناء المادة ، وفناء العالم ، ونظرية النشوء والارتقاء ، إلى غير ذلك مما له تأثير في اضعاف ذلك الايمان فينا

تجاه تلك الحقائق العلمية عن الكون والحياة نشأت مواقف مختلفة لمفكرين وسبل متمايزة للفكر الحديث والفلسفة الحديثة : فطائفة من الناس عزَّ عليها أن تدع أي شك يتطرق إلى ايمانها وأبت ان تعترف بكل ما جاء به العلم عن الكون وعن الانسان . وهذه الطائفة المحافظة ليست موضوع بحثي ، وانما هناك فئات اخرى أثر فيها العلم فترك فيها نتائج مختلفة ، يمكن تصنيفها ودرجها كالآتي : —

١ — المتشائمون Pessimists

٢ — المتفائلون او المثاليون Optimists, Idealists

٣ — العمليون والطبيعيون Pragmatists. Naturalists

١ — المتشائمون

فالمتشائمون هم أول فريق ظهرت البوادر الاولى لنتائج تلك الحقائق العلمية في افكارهم ووجهة نظرهم في الحياة . ولما طبعت عليه نفوس هؤلاء من التشاؤم ، ولما امتازت به نتائج العلم الحديث من الاجماع على الاخذ بها ، كان لا بدَّ ان نجد تلك النفوس صاخبة او نسمعها نادبة حظ الانسان وباكية من النهاية المحزنة لقصة الانسان على هذه الارض . فنسمع مثل تنيسون يقول « إذا لم يكن هناك خلود فسأرمي بنفسي في اليم » . وفي ملحمته الذكرى In Memoriam — نجد العالم زاخراً آلاماً قاسية ومستمرة . ولكننا نجد في شوبنهور مثل تلك النتيجة واضحة ، ففلسفته هي ابلغ تعبير عن عبث الجهود البشرية وعدم وجود غاية في الحياة وفي الطبيعة . وعنده ان مغزى الحياة هي الكفاح الأعمى والجهاد غير المجدي ، وان قوة عاشمة وغير مدبرة هي التي انتجت هذا العالم ومن يعيش عليه ، وهي التي يدعوها « بالارادة » . فهو يقول : « كل انسان وفترة وجوده في الحياة ليسا الا حلماً قصيراً لارادة الحياة المستمرة . وما الانسان الا صورة زائلة ترسمها الطبيعة في صحائفها الكثيرة لا تسمح لها في الظهور الاَّ برهة قصيرة تعود بعدها الى العدم لتفسح المجال لصور غيرها »[1] وقد يجد الانسان في العلم وفي الفن وفي مساعدة غيره من اخوانه تعزية وملهاة . ولكن شوبنهور يرى أن هذه كلها لا تستحق ما يقاسيه الانسان في سبيل الوصول اليها : « فاذا شبهت الحياة بطريق متوهج بنار حامية إلاَّ بقعة اشبار باردة، الفينا المنخدعين من الناس يجدون في تلك الاشبار الباردة تعلة وتعزية ، ووجدنا الذين نفذت انظارهم الى ما وراء ذلك الخداع فعرفوا حقيقة الكل ، ليس لديهم ما يتعزون به فينسحبون من الطريق »

وبعد ان بكى هؤلاء المتشائمون كثيراً وندبوا طويلاً آل بهم للجزع والاعياء الى البحث عن

(١) « العالم كارادة وتمثيل » Die Welt als Wille und Vorstellung

التسلية والتعزية في الفن والجمال ، وصرح نسم مثل والتر بتر — Walter Pater — في كتابه Conclusion to the Renaissance — ورينان في — Examen d'un Conscience Philosophique — يبشرون بتبجيل الفن والجمال كلاهما للانسان من تلك الحقائق العلمية المرة . حتى انه وان ادعى اولئك المبشرون بأن تمجيدهم للفن وللجمال هو لاجل الفن والجمال ، الا اننا نستطيع أن نتلمس فيه صدى الصوت القديم القائل « لنأكل ونشرب ونكن سعداء فاننا غداً نموت » . وهكذا نجد هذه الابيقورية العصرية تتغلغل في روح العصر . اذ كل فلسفاتنا الاجتماعية حقاً ، ما هي الا وسائل مزخرفة للتمتع بالاكل والشرب والحصول على الغبطة في أحسن شكل ممكن . فروح العصر على وفاق مع الخيام ، سواء اعترفنا بذلك ام أبينا الاعتراف

٢ — المتفائلون أو المثاليون

يختلف هؤلاء عن المتشائمين في انهم وان كان كثير منهم سلم كما سلم المتشائمون بالصورة التي رسمها العلم للعالم ، فقد ظل بينهم فريق كبير شديد الرغبة عن التخلي عن معتقداته الموروثة وآماله القديمة : فاتجه هذا العدد منهم الى تلك النظريات التي انتجتها أخيلة الرمانتيكيين كرد فعل لصورة العالم النيوتونية في عصرهم . وهكذا نجد النزعة المثالية (idealism) قد نمت من جديد وأضحى أصحابها يحاولون ان يبرهنوا على ان العلم لم يقص قصة الحياة الكاملة ، وان الطبيعة عاملة مع الانسان لخيره وصالحه . اي ان هذه النزعة المتجددة كانت نتيجة تردد تلك الفئة بين التخلي عن آمالها كل التخلي ، وبين الصعوبة التي وجدتها في رفض الحقائق العلمية ، فهي توفيق بين المعرفة والامل ، اي بين العقل والعاطفة . ووجد هذا الفريق في « كانت » خير حل للمشكلة وخير توفيق بين العلم وبين املهم . فهم كما كانت يعترفون بأن كل ما كشفه العلم صحيح وحقيقي ضمن دائرة العلم ، الا ان عالم العلم ما هو الا عالم الظواهر ، ويكمن وراءه او يتخلله عالم الحقيقة الذي يختلف كثيراً عن عالم الحس . وعلى هذا فعالم الحقيقة ليس كما يصوره العلم ميكانيكياً لا غاية له ، وانما هو عالم روحي اخلاقي يضمن للانسان جهوده وكفاحه . فأضحى هذا المعتقد خير تعزية لكثير من النفوس ، ولا سيما تلك المتعلقة بالايمان والامل ، اذ استطاعت أن تبرهن به على وجود الله وان عجز العلم عن أن يجده ، وأن تسوغ قواعد الحياة الاجتماعية والدينية

إلا انه بعد انقضاء جيل ، اي في مستهل القرن العشرين ، نجد تلك النزعة المثالية وقد اخذ عدد معتنقيها يتناقص ، اذ نرى انفسنا أمام تبجيل النشوء والارتقاء ، حيث الايمان القديم يخلي المكان لايمان جديد هو « تمجيد النشوء والارتقاء » . وكما يسم كل معتقد معتنقيه بطوابع مختلفة : كذلك الحال في هذا المعتقد الجديد الذي احدث وجهات نظر مختلفة بين المؤمنين به : ففئة تمجد فكرة النشوء وتعلق عليها الآمال ، وترى أن على الانسان أن يجعل اتجاه سيره وفقاً لنواميس الطبيعة ووفقاً

لسنن النشوء ولا سيما بعد ان عرفت تلك النواميس . يحدثنا « سبنسر » عن ذلك فيقول : « إن اسمى شيء في الحياة هو السعادة البشرية . والمجتمع الذي يمتع بكل فرد من افراده يفوز بالسعادة العظمى . ونستطيع ان نخلق مثل ذلك المجتمع إذا أسسناه على مبادىء المنافسة والتزاحم الحر وعلى اطلاق امكان الفرد يفعل ما يشاء لصالحه . وسيكون مجتمع المستقبل المتطور متمماً بالوفاق مع النواميس الطبيعية ، وستكون مؤسساته على اتساق والبيئة البيولوجية والطبيعية . » وفئة اخرى رأت ان في هذا الايمان الجديد خير ضامن لتقدم الانسان وارتقائه وبلوغه الكمال ، فتراها تعقد الآمال على الناموس الكوني في نشوء ذلك المجتمع الكامل . و « ماركس » يشبه سبنسر في تمجيد ناموس النشوء والارتقاء ، الا انهُ يختلف عنهُ في فهم ذلك الناموس ، اذ « سبنسر » يراه مفضياً الى « الفردية Individualism » في حين ان « ماركس » يراه مفضياً الى الاجتماعية والاشتراكية ، فيقبض فيه العمال على آلات الانتاج ويستخدمونها لصالحهم . ففهم « ماركس » لناموس النشوء فهم مادي وليس فهماً بيولوجياً . وسواء أخذنا برأي ماركس الاجتماعي او برأي سبنسر الفردي، فان كلا الرأيين يمثل لنا كيف صار الناس يؤمنون بان هذا العالم « الميكانيكي المتطور » ليس شراً كما حسبه المتشائمون ، وان الاعتقاد به غير مفضٍ الى اليأس والتشاؤم وانما الى الأمل اللامتناهي

وهناك عدا الفئتين السالفتين ، فريق رأى ان فحوى نظرية النشوء هو التغير والتجدد ، وعلى ذلك جعل هذا الفريق التجدد والتطور مثلاً أعلى . وعند هؤلاء ان ماهية التجدد هي الخلق والابتداع ، والانسان يحوز بعقله وذكائه اعظم قوة خالقة ومجددة . فدعهُ اذن يعيش ويخلق وينتج . فاذا وقف نفسهُ على العمل والتجدد كان الانسان الطبيعي الحق

وهناك طائفة اخرى يمثلها نيتشه ، ارى الضرورة تقضي بابداء الملاحظات الآتية على موقفها

١ — ادرك نيتشه انهُ اذا اخذنا بفكرة النشوء وبما تجهزنا به من مقاييس اخلاقية ، وجب علينا ان ننشىء لنا مثلاً جديدة ومقاييس اخلاقية غير التي ورثناها والتي هي على طرفي نقيض والعالم المتطور الذي نعيش فيه فما كان حسناً في الوقت الذي كانت تحكم فيه العناية الإلهية لم يعد كذلك في وقتنا. واذا اردنا ان ننشىء جيلاً نبيلاً قادراً على ان يسير والنواميس الطبيعية وجب علينا نبذ كل ما ورثناه عن الماضي والذي من شأنه الاستسلام والضعف ومماكسة نواميس النشوء والارتقاء

٢ — وعلى هذا المنوال نرى نيتشه يمجد المستقبل ويتصور نشوء الانسان الكامل، على انهُ لا يتوقع ذلك بتركنا الامر الى العوامل الطبيعية تخلق لنا من تلقاء ذاتها ذلك الانسان. بل علينا ان نكدح ونعد العدة للمستقبل ، يجب ان نفعل ذلك وان تطلب الامر منا ان نكون قساة . ونحن ان لم نفعل ذلك فالانسان بدلاً من ارتقائه الى كمال الآلهة ، سينحط الى مستوى الحشرات

٣ — اعتمد نيتشه اولاً على فلسفة شوبنهور ثم حرر نفسهُ من الانطباع بصورة الحياة كما رآها شوبنهور . ولكن اصالة نيتشه، وهي التي تفرقهُ عن شوبنهور تبرز في رفضه الاخذ بالنتيجة السلبية التي

رآها شوبنهور ، وهي الانهزام في وجه الحياة المليئة بالكفاح والتناحر اللذين ترضيهما في الفرد «إرادة الحياة» الشوبنهورية . اذ بذينك العاملين سيظهر « السوبرمان » . وترقب ظهور ذلك الانسان الكامل هو الذي جعل نيتشه يثبت في الميدان مسرعاً كل ما يكلفنا ذلك التناحر من المتاعب ومستبيحاً مأساة الحياة الحاضرة اذ سيعقبها في المستقبل الفرح العظيم

٤ — وكثيراً ما يتهم نيتشه بتأليه الجشع التجاري والقومية والوطنية، مشجعاً الحروب والتناحر بين الشعوب . ولكن لا شيء ابعد من هذا من رأي نيتشه الذي يحتقر الصناعة الرأسمالية وعقلية السامة والقادة المهرجين ، ويعتبر التوسع التجاري القومي ومحبة الوطنية امراً انواع الشرور واذ يرى هذه الاشياء عائقة ومؤخرة لولادة ابن المستقبل — السبرمان —

٣ — العمليون او الطبيعيون

هذه الفئة اقرب الى المتفائلين منها الى المتشائمين . الا فرق واحد هو ان المتفائلين ، لا سيما النشوئيين منهم ، يؤمنون باستخدام قوى الطبيعة والتعاون معها لتقريب ذلك اليوم الذي يولد فيه الانسان الكامل

على ان العمليين — وهم يمثلون الفلسفة الحديثة وبوجه خاص في امريكا — يرون ان الانسان في عالمه هذا الذي يصوره العلم ليستطيع ان يعيش بذكائه وكفاحه حياة فردية او اجتماعية راقية . فعالم العلم لا يجب نبذه كما لا يجب تمجيده تمجيداً اعمى ، بل من الخير ان نقبله كسكن الانسان الطبيعي ومستودع مواد عمله وصناعته

واذا كان الانسان جزءاً من الطبيعة ونتاج قواها ، فانه ليستطيع ان يستغل تلك القوى لنفسه ، مستعملاً في ذلك عقله وذكاءه اللذين منحته اياهما الطبيعة . فالنشوئيون عبدة المستقبل والعمليون عبدة الحاضر

ليست هذه الفلسفة وليدة اليوم ، لاننا اذا رجعنا الى الماضي القينا في ميدان الفلسفة اليونانية أفراداً اعتقدوا وقالوا بأن الحياة شيء يجب ان يستمتع به على ان تدار وتساس ميول الانسان الطبيعية وعواطفه . وفي فجر العلم الحديث نجد « بيكون » يبشر بتبجيل العلم والعمل وباستخدام العلم لتسخير قوى الطبيعة لمنفعة الانسان . وهكذا نجد هذه النزعة «الطبيعية Naturalism» البيكونية وقد امتحدت بنزعة اليونان في تكوين هذه الفلسفة العصرية التي يمكن ان نسميها بالعملية او الآلية Pragmatism or Instrumentalism والتي يفاخر الاميركيون بانها فلسفتهم الخاصة بهم . وربما اعدت الكرة فذكرت شيئاً وافياً عن هذه الفلسفة الجديدة في الاعداد القادمة (جامعة شيكاغو)